

التناسق الفني في سورة الكهف

حشلافي لخضر(*)

التناسق الفني مطلب أساس في العمل الأدبي ، فيزيل عنه الفوضى والتشتت مما يجعل قبوله وتذوقه ممكناً ، وتوصل فيه المقدمات إلى النتائج ، فيرتبط أوله بآخره ، ويتم التواصل مع الفكرة التي يتناولها النص مهما تعددت فيه الأساليب وتنوعت وسائل العرض ، فتبقى الروابط اللفظية والأسلوبية تمارس نشاطها وفاعليتها في النص الأدبي.

في سورة الكهف تنوع ظاهر في القصص القرآني، فشكلت لوحات ذوات حدود، بالإضافة إلى التنوع في التصوير والأمثال التي وردت في السورة، فقد يوهم ما يظهر للوهلة الأولى أننا بصدد عمل فيه تفكك ويخلو من الوحدة الفنية الأدبية، والتي تعد من أهم عناصر العمل الأدبي بل عليه تركز الفنية الأدبية ، فهي تقيه من التشتت الذي يلبس على الملتقي ويضعف جاذبية النص ويفتقد ماء حيويته ، والتناسق الفني لأهميته يعد أساس الوحدة الأدبية فهو الذي يشكل طبيعة الكل ويجعل من الصورة الكلية وعلاقتها الداخلية لوحة واحدة لا مكان فيها للتجزئة إلى عناصر ، كأنها الوحدة العضوية التي تجمع أجزاء الكائن الحي^(١). وتنوع وسائل التوليف والتماسك داخل النص الأدبي فالنص الأدبي يعتمد اعتماداً كبيراً على السياق الجيد وحسن أطراده، وترابط الجمل ، وما بينهما من علامات التضام و الاقتران مع انتقاء التنظيم الملائم للموقف الذي يدور حوله النص^(٢). بالإضافة إلى ما سبق من

* أستاذ الأدب في قسم اللغة والأدب العربي - جامعة الجلفة.

مستلزمات الوحدة العضوية في العمل الأدبي وحدة الموضوع وما يستلزم ذلك من ترتيب الصورة الفنية و الأفكار(٣).

والبحت عن الروابط المشتركة يتوجه بنا في اتجاهين:

أولاً- المستوى الفني ويشمل الجانب اللغوي ، كالتقديم والتأخير أو بما يتكرر من ألفاظ مفردة أو أساليب لغوية ، وحتى لا تصبح الدراسة الأسلوبية عملية إحصائية مجردة^(٤)، بل تشكل أنماط في حالة تكرارها تعيد الدهن مباشرة إلى ما قد سبق ذكره في النص، مما يجعل التكرار من عناصر الربط الأسلوبي.

ثانياً- المضمون وما يتمثل فيه من أفكار ومعان وظلالها على امتداد النص بما يشكل عناصر وحدة فنية على مستوى الشكل و المضمون.

التناسق في التقديم والتأخير:

من صور التناسب والتناسق في التركيب ، التقديم والتأخير الذي يعطي ضللاً عامة على السورة بشكل عام فالترتيب في قوله تعالى : (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا) الكهف [٥٤] ، فالترتيب الذي ظهر في هذه الآية من تقدم ذكر القرآن على الناس التزم به السورة كلها في انسجام وتناسق ، فافتتحت السورة بقوله تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا) الكهف [١]، فقد بدأت السورة بالكلام على الكتاب (القرآن)، ثم ذكر بعده أصحاب الكهف وموسى وذكر ذي القرنين ، فكان من المناسب أن يتقدم ذكر القرآن على الناس^(٥) ، لتناسب البداية مع البنائية السورة كاملة.

التناسق في الحوار والشكل:

أسلوب الحوار من الأساليب التي شكلت ظاهرة لافتة في سورة الكهف ، وتنوعت أشكاله ومستوياته في انسجام وتناسق ظاهرين بين آيات السورة من

حيث الوجود المكثف لأسلوب الحوار في كل قصص السورة والأمثال ،
وطبيعة الدعوة التي تمثلها المرحلة المكية القائمة على الحجة والإقناع بأسلوب
الحوار.

ومن خلال متابعة ظاهرة الحوار وأشكاله في قوله تعالى: (وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ
لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا
رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ) الكهف (١٩) والحوار يتكرر في قوله تعالى: (وَكَانَ لَهُ
ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا) الكهف (٣٤)،
(قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ
سَوَّاكَ رَجُلًا) الكهف (٣٧).

والجدل نوع من أنواع الحوار ولكنه ذو طبيعة سلبية ، قال تعالى: (وَكَانَ
الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا) الكهف (٥٤) (وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ
لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ) الكهف (٥٦) (فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا)
الكهف (٢٢)، فيعلم الله سبحانه وتعالى رسوله والمؤمنين أنواع الحوار وآدابه
ليتمثلوا النافع منها ويتنبهوا لخطورة الجدل وأصحابه.

التناسق الفني القصصي :

اشتملت السورة على ثلاث قصص : قصة الفتية أهل الكهف ، وقصة
موسى - عليه السلام- مع العبد الصالح ، وقصة ذي القرنين ، وضرب فيها
أمثلة ، مثل إبليس مع آدم ، ومثل الرجلين صاحب الجنتين والرجل المؤمن ،
وهذا التعدد في القصص وعرض بعضها أكثر من مرة بأساليب مختلفة قد
يوحى بالتفكك ، فلقد عرضت قصة أهل الكهف مرتين متعاقبتين ، الأولى
قدمت القصة بكل موجز وسريع ، مع المحافظة على المضمون وهدف القصة
وفي المرة الثانية عرضت بالتفصيل المفيد ، فتنوع الأسلوب والتنوع مطلب
بلاغي ، على أن يحافظ على الفكرة الأساسية للمؤمن أكثر ابتلاء ولذا كان

الصبر والتوكل على الله منهجا وطريقة لأهل الكهف ، فكانت حقيقة الإيمان هي المحرك لهم .

قصة موسى - عليه السلام - يشكل فيها طلب العلم والعزم على الصبر المحور الرئيس ، فقد ركزت الآيات على حقيقة الصبر، قال تعالى: (قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ، وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ، قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا) الكهف [٦٨، ٦٧، ٦٩] . إلا أن الأمور التي واجهت موسى لا يعلم سرها إلا الله فيصعب على الإنسان أن يدركها بذاته ، فيوكل أمرها إلى الله .

تتعدد أشكال الصبر ، فالصبر على الصعاب و العذاب أمر قد عهده الإنسان ، أما الصبر على النعم فلا يحظى به إلا المؤمن فالفتنة و الغرور بما أتى قد يخرجانه إلى البطر و كفران النعمة ، فقصة ذي القرنين الذي مكن له الله و زاده ملكا و قوة ، قد صبر في رحلته عبر مشارق الأرض و مغاربها وما حققه من حكم بالعدل . و نصرة الضعفاء متوكلا على الله بما أعطاه من قوة قال تعالى: (قَالَ مَا مَكْنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ) الكهف [٩٥] و لصبره على النعمة و أداء حقها بلغه الله تلك المكانة و أيدته بنصره .

ترتبط قصة ذي القرنين من حيث الفكرة بقصة الرجلين صاحب الجنتين والرجل المؤمن فالنعم التي أنعم الله بها على صاحب الجنة، كفر بها وبحقائق الإيمان و عتا و ظلم نفسه، فكانت عاقبة أمره بورا ، والتسلسل في فكرة الصبر وظلالها التي احتوتها السورة عبر القصص المتعاقبة ، تشكل عنصر ربط فيما بينها. مع قصة الفتية صبر على الإيمان وما يلاقى المؤمن من أذى، وهذا أكثر أنواع الصبر شيوعا، ومع قصة النبي موسى صبر على طلب المعرفة والعلم في سبيل الله أما الصبر على النعم بأداء الحقوق كانت قصة ذي القرنين.

الربط الفني :

ومن مظاهر التناسق الفني في السورة ، بين المقدمة والخاتمة في أول السورة، قال تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا) (١) قِيمًا لِّنُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَا كُنَّ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا) الكهف [٤]، تشكل حقيقة الإيمان في الآيات محورا رئيسا ، وأن الأنبياء عبيد الله لهم وظيفة التبليغ للرسالة ، والفكرة نفسها تحملها آخر آيات السورة، قال تعالى: (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) الكهف [١١٠].

التناسق الفني داخل القصة:

من ملامح التناسق و أعمقها داخل القصة ما كان بين الطبيعة والإنسان في قصة ذي القرنين ، فالمشهد الذي يعرضه السياق هو مشهد مكشوف في الطبيعة: الشمس ساطعة لا يسترها عن القوم ساتر ، وكذلك ضمير ذي القرنين ونواياه كلها مكشوفة لعلم الله فبذلك يتناسق المشهد في الطبيعة وفي الضمير ذي القرنين على طريقة التنسيق القرآنية الدقيقة^(٦).

وتعود مشاهد البعث مع قصة ذي القرنين فتبدأ من قوله تعالى: (قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا) الكهف [٩٨] ، وتنتهي القصة بعرض تلك المشاهد التي تمثل حركة البشر وتلاطمهم، ونفخ الصور ، و النار التي أصبح من كان لا يرى الآيات في الدنيا يراها وإذا بهم تعرض عليهم جهنم فلا يعرضون عنها كما كانوا يعرضون عن ذكر الله - في الدنيا - فما يستطيعون اليوم إعراضا ، والتعبير ينسق بين

الإعراض والعرض متقابلين في المشهد ، متقابلين في الحركة على طريقة التناسق الفني في القرآن^(٧) .

ومن التناسق الفني بين القصة القرآنية وما يأتي بعده فيشكل وحدة فنية ، قصة أهل الكهف وصبرهم على الدعوة وعلاقة ذلك بالرسول ﷺ والفتية الذين آمنوا فيشرهم الله بالغلبة كما كانت الفتية أهل الكهف ، وقصة الرجل صاحب الجنتين وإنكاره النعم فزالت كلها بأسرع مما يتخيل الإنسان فجاءت القصة متبوعة بذكر الدنيا وزواها في نفس السرعة والنهاية المحزنة لمن يتعلق بها ، فشكلت القصة لما يأتي بعدها دليلا على إمكانية حدوث الأمر مرة أخرى إذا ما تكرر الحدث أو القصة .

نُجمل مظاهر التناسق الفني في السورة التي تعد من أهم ما يميز الأعمال الأدبية الناجحة بما يأتي ، الأفكار الرئيسة التي دارت حولها السورة والقصص من وحدانية الله وبعث ، وصبر و حساب وجزاء ، والتسلسل في عرض الأفكار ، مع تناسب المقدمة مع الخاتمة والدعوة إلى التوحيد .

الهوامش:

- (١) أبو علي محمد بركات: في الأدب والبيان ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، عمان ١٩٨٤ ، ص ١١٧ .
- (٢) خليل إبراهيم : النص الأدبي تحليله وبنائه ، دار الكرمل ، عمان ١٩٩٤ ، ص ١٨ .
- (٣) محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث ، ص ٣٩٥ .
- (٤) عودة خليل: المنهج الأسلوبي في دراسة النص الأدبي، مجلة جامعة النجاح للأبحاث، العدد ٨، ١٩٩٤ .
- (٥) فاضل صالح السامرائي: التعبير القرآني ، ط ٤: دار عمار ، ٢٠٠٥ عمان، ص ٦٩ .
- (٦) السيد قطب: في ضلال القرآن ، ط ٢٣، دار الشروق، بيروت ١٩٩٤ ، ص ٢٢٩٢ .
- (٧) السيد قطب: في ضلال القرآن ، ص ٢٢٩٤ .